

تاريخ الأدب العربي

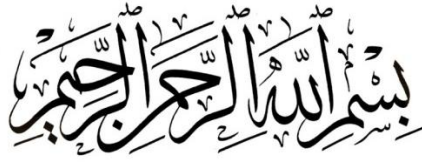
بحث لمقرر الكفايات اللُّغوية ٤

إعداد الطالبات :

- أمل الدوسري
- سديم الشدي
- شهد الشدي
- شهد العنقري
- مجد الخنين

إشراف / معلمة المادة :

أ. سارة السماري



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

ظلّ الأدب والفنون صورةً حيةً لحياة الشعوب ، ناطقين دائماً بثقافات الإنسان وحياته ، عواطفه وصراعاته و أفكاره واختلاجات روحه . لذلك استطعنا نحن في مطلع القرن الواحد والعشرين قراءة أفكار الإنسان السومري مثلاً قبل أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، بل عشنا معه ورأينا ديانته و أسلوب عيشه وتنظيم مجتمعه ، وكل ذلك عن طريق استنطاق ما وصل إلينا من رسوم وحكايا وأشعار نقشها على جدران قلاع وحصونه ومعابده . لذا لا عجب أن تحتفظ الشعوب الآن بآدابها التي تروي قصص أمجادها و تاريخها ، وتجعلها على اتصال مع من عاش قبلهم ومن سيأتي بعدهم ، ولا عجب أن تحظى آداب الشعوب بالتقدير والاحترام ، ومعاملتها معاملة الكنز الثمين الخالد .

المقصود بأدب اللغة :

ولفظ الأدب نطلقه بأوسع معانيه على كل ما صاغه الإنسان في قالب لغوي ليوصله إلى الذاكرة ، يدخل فيه الشعر والحكايات والأساطير والخطب وما شابهها ، أما أدب اللغة فهو ما أثر من أدب للغة بعينها .

الأدب العربي :

والمعروف أن الآداب العربية أغنى الآداب جمعاء ، فهو الأدب الذي شهد الإنسان في حياته داخل الصحراء وفي ظل القبيلة ، ثم تطوره ليصبح صانع حضارة وابتناً لدولة واحدة ممتدة من حدود الصين إلى إسبانيا ، وكانت لغة المدح والهجاء والقصيد والخطب ، فنمت وصارت لغة الدين والعلم والفلسفة والآداب .

تاريخ الأدب :

ولما ذكرناه سالفاً من القيمة البالغة للآداب ؛ فقد نشأت علوم كثيرة تهتم به ، ومنها تاريخ الأدب ، وهو العلم الذي يبحث أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها في مختلف العصور ، و ما عرض له من أسباب الصعود والهبوط والاندثار ، وقد توسع العرب في العصور السابقة في هذا الباب فظهرت العديد من الكتب مثل : وفيات الأعيان لابن خلكان ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ونفح الطيب للمقري^١ .

^١ نذكر هنا أن تاريخ الأدب بصفته علماً قد ظهر على يد الإيطاليين في القرن الثامن عشر ، ورغم وجود كتب عربية كثيرة يمكن تصنيفها ككتب لتاريخ الأدب إلا أنها لا تعتبر مؤسسة لعلم كامل ، حيث يعيها كونها أخبار مفردة و نبذاً يسيرة ولمحاً وجيزة جمعت وصنفت لا تتطرق بتحليل كامل أو دراسة أو نحو ذلك .

تقسيم تاريخ الأدب العربي :

لارتباط تاريخ الأدب الوثيق بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة ، قُسم تاريخ الأدب العربي إلى عصور حسب التقلبات السياسية والاجتماعية ، فصار للأدب خمسة عصور هي كما يلي :

(١) العصر الجاهلي : ويبدأ من استقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس الميلادي وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .

(٢) عصر صدر الإسلام والدولة الأموية : ويبدأ مع الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ هـ .

(٣) العصر العباسي : ومبده قيام الدولة العباسية ومنتهاه سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ

(٤) العصر العثماني : ويبتدئ بسقوط بغداد وينتهي عند النهضة الحديثة سنة ١٢٢٠ هـ .

(٥) العصر الحديث : ويبدأ من استيلاء محمد علي^١ على مصر ولا يزال .

هذا وسنتطرق في هذا البحث بإذن الله إلى خصائص الأدب العربي في كل عصر ، وسنتناول أبرز الأدباء وشيئاً يسيراً من النصوص الأدبية ، نازعين في ذلك إلى التبسيط والتلخيص ، والله نسأل التوفيق والسداد .

^١ محمد علي باشا : مؤسس مصر الحديثة ومؤسس الأسرة العلوية ، حكم تحت السلطة الاسمية للعثمانيين وأسس لحكم أسرته إلى أن أطيح بحكمها إثر ثورة يوليو ، ما بين ١٨٦٧ - ١٩١٤ م .

آداب العصر الجاهلي

نشأة اللغة العربية :

تعتبر اللغة العربية واحدة من اللغات السامية ، والتي كثر أبنائها وتوزعوا في البلاد ، فاختلقت لغاتهم ونشأت لغات مختلفة منها العربية ، والكنعانية ، والعبرانية ، والكلدانية وغيرها من اللغات السامية .

ثم تنوعت العربية بحسب لهجات قبائلها ، فهناك لهجة تميم ، وربيعة ، ومضر ، وقيس وغيرها . وجاء الإسلام بلهجة قريش فدونت هي ومحي ما سواها^١

بداية العصر الجاهلي :

ولا توجد في المصادر والوثائق متى نزح العرب إلى جزيرتهم ، والنصوص الحجرية التي وصلتنا ما زالت نادرة قليلة الغناء ، لكن تاريخ العرب عموماً يبدأ منذ توزع العرب إلى شعبين : شعب قحطان وشعب عدنان . و سكنت قحطان اليمن وكانت لهم فيه حضارة عظيمة ، وتفرقت بعض قبائلها في يثرب – ومنهم الأوس والخزرج – وبعضهم في عمان والحيرة والشام ، أما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما يأسره إلى ريف العراق .

ويرجع العرب لثلاث طبقات : العرب البائدة وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم ، وأشهر قبائلهم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس . والعرب المستعربة وهم العرب المنتمون إلى يعرب بن قحطان ، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم ومصدر بيانهم . ثم العرب المستعربة وهم ولد إسماعيل عليه السلام ، نزل الحجاز في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وصاهر ملوك جرهم فكان له بنون ضلوا في مجاهل الزمان فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان .

الأدب الجاهلي :

وشاعت البلاغة عند العرب ، حتى قيل إن القرآن نزل بليغاً متحدياً لهم أن يأتوا بمثل له في البلاغة ، فكانت تلك معجزتهم ، ولا عجب بعد ذلك أن يكون الأدب ميداناً للمباهاة والمفاخرة ، فنجدهم مثلاً يلتقون في الأشهر الحرم في أسواقهم للبيع والتجارة ، ثم يتحول اجتماعهم ذاك إلى ملتقى أدبي ترى فيه شاعراً قد وقف ينشد شعره ، وخطيباً وقف مباهياً بفصاحته ، وأشهر تلك الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز .

النثر الجاهلي :

وتنوع النثر عند العرب بين حكم ووصايا وخطب ووصف وأقاصيص ، وكانوا يأتون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة وفعل الوراثة وقلة اختلاطهم بالأعاجم .

^١ مما يذكر في اختلاف اللهجات العجيبة عند قبيلة قضاعة ، إذ تنطق الباء جيماً ، فيقولون للراعي راعج . والطمطمانية وشاعت عند جُمَيْر إذ يجعلون ال التعريف أم ، فيقولون للصيام أمصيام ونحو ذلك .

ولم ينقل الرواة إلا قليلاً مما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه ، وقد امتاز بجريانه مع الطبع ، فليس فيه تكلف ولا زخرف ولا غلو ، قوي اللفظ متين التركيب ، ولنا التفصيل في أنواع النثر عندهم :

الأمثال :

والمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسله بذاتها تنقل عن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير . وهذا النوع اختص به العرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية و حوادثهم الفردية ، كقولهم : وافق شَنْ طَبَقَةً ، ولأمر ما جدع قَصِيرُ أنفه ، ويداك أوكتا وفوك نفخ ، إن كنت ربحاً فقد لاقيت إعصاراً ، إنك لا تجني من الشوك العنب .

الحكم :

والحكمة قولٌ رائع موافق للحق سالم من الحشو . وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة . كقولهم : الخطأ زاد العَجول ، من سلك الجدد أمن العثار ، عي صامت خير من عي ناطق ، العتاب قبل العقاب ، أول الحزم المشورة ، رب قول أنفذ من صول .

الخطب :

وكانت موضع الفخار ، والدود عن شرف القبيلة وحماها ، وإصلاح ذات البين والسفارة بين رؤوس القبائل والملوك ، وحرص العرب على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها ، وشاعر يرفع ذكرها . وأسلوبها كان رائع اللفظ خلاب العبارة ، واضح المنهج ، قصير السجع كثير الأمثال . وأشهر خطباءهم في ذاك العصر قيس بن ساعدة الإيادي ، و عمرو بن كلثوم التغلبي .

الشعر :

العرب أشعر الساميين فطرة ، وأبلغهم على الشعر قدرة ، لاتساع لغتهم وصفاء قريحتهم وبساطة معيشتهم . وكان للشعر سلطان عليهم ، فقصيدته ترفع شأن قبيلة ، وقصيدته تخزيها ، وقصيدته تصلح بين أقوام وتشعل الحرب بين آخرين . وامتاز الشعر الجاهلي بوحدة البيت دون القصيدة ، و بصدق التصوير للعاطفة ، وتمثيل الطبيعة ، والابتداء بذكر الأطلال والديار .

ومما نال عند العرب من القصائد مدى واسعاً في الانتشار ، وحظاً وفيراً من العناية والحفظ ، المعلقات أو المذهبات ، وهن على الرأي الغالب سبعة قصائد^١ ، اختارها العرب فكتبها بماء الذهب وعلقتها على الكعبة ، وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام ، وأصحابها هم : امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، و طرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة ، وعنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة .

^١ وقيل عشرة .

مختارات من الأدب الجاهلي

خطبة قيس بن ساعدة في سوق عكاظ :

أيها الناس ! اسمعوا وعوا . إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهّر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة . إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لغيراً . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ يا معشر إياد ، أين الآباء والأجداد ؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول أجالاً ؟ طحنهم الدهر بكلّله ، ومزقهم بتطاوله .

في السابقين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقيين غابر

أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال لبید بن ربیعۃ برثی النعمان :

أنحب فيقضى أو ضلالاً وباطل ؟

بلى ، كل ذي لب إلى الله واسل

وكل نعيم لا محالة زائل

دويمية تصفر منها الأنامل

إذا حصلت عند الإله الحصائل

ألا تسألان المرء ماذا يحاول

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل أناس سوف تدخل بينهم

وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه

وقال امرؤ القيس واصفاً الليل في معلقته :

علي بأنواع الهموم ليبتلي

وأردف أعجازاً وناء بكلّكل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

بأمراس كتان إلا صم جندل

وليلٍ كموج البحر ألقي سدوله

فقلت له لما تمطى بصلبه

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

فيالك من ليل كأن نجومه

آداب عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

أقبل الإسلام يحمل بين يديه مشاعل الهداية ، فجمع شتات العرب ووحدهم ، وأخذهم إلى حياة أرقى و مثل أعلى ، فقلب العقلية العربية قلباً ، وشن على الجاهلية حرباً ، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه ، ويناقض ما عرفوه .

واتسعت الفتوح الإسلامية فاتصل العرب بأمم وأجناس أخرى ، وتأثروا بعاداتها ولغاتها وثقافتها وآدابها ، وتحسنت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ، وظهرت الأحزاب السياسية ، ونشأت الروح الدينية .

ولقد جاء الإسلام بفتح كبير في الأدب العربي ، بل وفي الثقافة والعلم أيضاً ، إذ دَوّن أول كتاب في اللغة العربية ، وهو القرآن الكريم ، جاء قد " أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " ^١ ، فاستحدث ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لم يألّفها العرب سالفاً ، فنقل الأدب العربي من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة ، إلى جمل متزاوجة متناسقة ، متخيرة الألفاظ حسنة التأليف ، رائعة التشبيه منطقية الغرض ، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم .

الأدب في عهد النبوة والخلفاء الراشدين :

ظل الشعر في عهد الرسول على نمطه الجاهلي ، فكان شعراء قريش من المشركين يهجون الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص و عبد الله بن الزبير ، وكان الشعراء من المسلمين يردون الهجاء بالهجاء على النمط الجاهلي : من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد . فظل الشعر إذن حتى وقت النبي -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء من بعده جاهلياً .

الشعر الأموي :

ازدهر الشعر في العصر الأموي ، حيث استمال الأمويون الشعراء بإغداق المال ، وأوقد الخلفاء - وشيوع المذاهب والأحزاب وقتها - نار التنافس والهجاء بين الشعراء ، فنبغ في هذا العصر زهاء مائة شاعر . والشعر الأموي وإن سار على منهج الجاهلية فإنه أسمى خيالاً وأوثق بناءً وأغزر معنى : لتأثرهم بالدين والحضارة ^٢ .

الشعراء وطبقاتهم :

- (١) الشعراء المخضرمون : وهم من عاشوا في الجاهلية وعاصروا الإسلام من بعدها ، ومنهم كعب بن زهير ، و الخنساء ، و حسان بن ثابت ، و الحطيئة - رضي الله عنهم جميعاً - .
- (٢) الشعراء الإسلاميون : ومنهم عمر بن ربيعة ، و الأخطل ، و جرير ، و الفرزدق . والطرمّاح بن حكيم .

^١ سورة هود ، آية ١ .

^٢ ظهر أيضاً في هذه الفترة الغزل العذري أو الغزل العفيف ، وممن برز فيه : جميل بثينة ،

الخطابة :

كان ظهور الإسلام من الأسباب العظمى التي بلغت بالخطابة غاية كمالها ، فالدعوة للدين ، و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع الفتن وردع البدع ، كل أولئك من أغراض الخطابة . وكان لها من أي القرآن وحججه معيناً لا ينضب ، ومدداً لا ينفد . وأهم ما ميزها في هذا العصر عذوبة لفظها ، ومتانة أسلوبها ، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها نهجه في الإرشاد والإقناع وابتدائها بحمد الله والصلاة على رسوله .

ومن أشهر الخطباء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، و خلفاؤه الراشدون ، وسحبان وائل وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف وقطري بن الفجاءة .

ومن نماذج خطبه -صلى الله عليه وسلم- ، خطبته بالخيف في منى ، حيث قال فيها :

" نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أداها إلى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولي الأمر ، ولزوم الجماعة إن دعوتهم تكون من ورائه . ومن كان همه الآخرة : جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومن كان همه الدنيا : فرق الله أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتها من الدنيا إلا ما كتب له " .

الرسائل :

كان أولياء العرب في الصدر الأول يملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب موجز فصيح ، بالطبع وبلا تكلف . فلما امتدت ظلال الخلافة اضطربهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدونها عمر رضي الله عنه . ثم جاء الأمويون فاتخذوا الكتاب والأدباء ووضعوا قيوداً وصيغاً للرسائل .

أما أسلوبها فكان جزل الألفاظ ، فخم التراكيب ، موجزاً واقفاً عند الغرض ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك فرفض مخاطبته في الرسائل كما يخاطب السوق ، فأمر بتجويد القراطيس وتفخيم الخطاب .

وأشهر الكتاب هو عبد الحميد بن يحيى ، الشهير بعبد الحميد الكاتب ، وهو أول من أسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها ، وحول الكتابة من مجرد وسيلة تخاطب إلى صناعة لها أصولها وقواعدها .

مختارات من أدب صدر الإسلام والدولة الأموية :

الحكم :

من حكم أبي بكر- رضي الله عنه قوله- : صنائع المعروف تقي مصارع السوء . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاثٌ من كنّ فيه كنّ عليه : البغي والنكث والمكر .

ولعمر -رضي الله عنه- : من كتم سرّه كان الخيار في يده . مُرّ ذوي القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . أشكوا إلى الله ضعف الأمن وخيانة القوي .

ولعلي -كرم الله وجهه- : رأي الشيخ خير من جلد الغلام . الناس أعداء ما جهلوا . قيمة كل امرئ ما يحسن .

الشعر :

ومن الشعر لامية كعب بن زهير التي مدح الرسول بها معتذراً عما سلف ومعلنناً إسلامه ، فخلع عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بردته لما سمعها ، ومنها :

وقال كل خليل كنت آمله	لا ألهيّنك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم	فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته	يوماً على آلة حديد محمول
أنبيئت أن رسول الله أوعدني	والوعد عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ	قرآن فيها مواعيط وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب وإن كثرت في الأقاويل

و قول الفرزدق مادحاً علي بن الحسين رضي الله عنه :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلمهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم
وليس قولك (من هذا) بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

وقول الطرمّاح بن حكيم :

لقد زادني حباً لنفسي أني	بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وأني شقي باللئام ولا ترى	شقيّاً بهم إلا كريم الشمائل

آداب العصر العباسي

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد . أثمرت فيه الفنون الإسلامية ، وزهت الآداب العربية ، ونقلت الآداب الأجنبية ، ونضج العقل العربي فوجد مجالاً للبحث والتفكير . واختلفت الدولة العباسية عن الأموية بسياستها التي كان لها الأثر الظاهر على الأدب العربي ، فالدولة الأموية كانت دولة عربية خالصة تعصبت للعرب وللغاتهم وآدابهم . أما العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية ، وتداخلت العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة ، فتمازجوا مع العرب بالتزاوج والتناسل ، وفتح باب على مصراعيه للثقافات الأخرى لتختلط بالعربية ، فترجمت الكتب و تعددت اللغات والأجناس . فكان نقلةً كبيرةً في تاريخ الأدب العربي .

أثر الفتوح والسياسة في اللغة وآدابها :

تأثرت اللغة العربية وآدابها كثيراً ، فرقت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة ، واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب ، كالتبجيل في الخطاب ، والاحتشام مع المخاطب ، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس ، وإحداث الألقاب والنعوت كالسفاح والمنصور والرشد وذي الرياستين وركن الدولة وغيرها ، والإسهاب في الرسائل ، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة ومترادفة ، مما زان اللغة من جهة وشأنها من أخرى .

النثر في العصر العباسي :

ازدهر النثر في ظلال الدولة العباسية ، ولم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في العصر الأموي ، بل تجاوزتها إلى أغراض شتى ، كالتصنيف والترجمة والمقالات والمقامات والمناظرة ، ورسائل التعارف والشكر والعتاب والتعازي والتهاني ، وغير ذلك من المعاني الحضريّة التي لم يعهد أكثرها من قبل .

بل لقد سارت الكتابة مسار الخطابة في قمع الأهواء وردع الأعداء وإطفاء الفتن وتأليف القلوب . وتنوّع الكتاب فمنهم كتاب الخراج والنفقات ، وكتاب المظالم والقضاء ، وكتاب الرسائل وغيرها .

ولما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله ، سرى الضعف إلى الكتابة ، فجهل أربابها الغرض منها ، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع ، فسمجت عباراتهم وفسدت معانهم ، فكانت مموهة الظاهر مشوهة الباطن ، وتجاوز هذا الأسلوب الرسائل إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم .

التوقيعات :

وظهر هذا النوع كرد على الرسائل والكتب المرسلة للخليفة أو الوزير ونحوه ، وهي تعليق قصير يجمع بين الإيجاز والقوة ، كتوقيع الرشيد لصاحب خراسان : داو جُرحك لا يتسع ، ووقع جعفر بن يحيى في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً : دع الضرع يدر لغيرك كما در لك .

المقامات :

وهي نوع من الفنون الأدبية النثرية ، يعتمد على المغالاة في المحسنات اللفظية والسجع لرواية قصة في المجالس ، بحيث تروى القصة في جلسة واحدة أو مقامة واحدة ، وأول من صاغها هو بديع الزمان الهمذاني وله مقاماته الشهيرة بمقامات الهمذاني.

الشعر :

تأثر الشعر بعصره ، فهجرت الكلمات الغريبة ، واقتبست الأفكار الفلسفية ، وولدت المعاني الحضريّة ، وسادت التشبيهات والاستعارات ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة ، وابتدعوا أوزاناً أخرى للشعر ، كالموشح والزجل والمواليا والدوبيت.

الشعراء المولدون :

وهم الطبقة الثالثة من الشعراء ، بعد المخضرمين والإسلاميين ، وقيل إنهم الموالى الذين اعتنقوا الإسلام من غيره ، وقيل بل هم ذوي الأصول غير العربية وتحدثوا العربية ، وعاشوا في بغداد ، ومن سمات شعرهم الخلاعة والمجون في الغزل ووصف الخمر ومجالسها ، وامتازوا بمعانيهم المبتكرة ، وأخيلتهم البديعة ، وأوصافهم الدقيقة ، ومن أشهرهم : بشار بن برد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، وعباس بن الأحنف ، وعلي بن الجهم .

شعراء الشام :

وقد امتازوا بإيثار اللفظ الجزل ، والأسلوب الفصيح السهل ، دون تعمق في المعنى ولا إفراط في الإيجاز . وبرز منهم نوابغ كالمثنبي ، وأبي تمام ، والبحري ، وأبي فراس ، وأبي العلاء .

الموشح :

وهو نوع من الشعر ابتدعه أهل الأندلس ، ذو أوزان مختلفة تماماً عن البحور الشعرية المعتادة ، وممن برع فيها عبادة القزاز وابن الحداد . ومن نماذجه :

يا حبيبي ارفع حجاب النور	عن العذار
ننظر المسك على الكافور	في جلنار
كللي	بالحلي
واجعلي	منعطف الجدول
يا سحب تيجان الربى	
سوارها	

مختارات من آداب العصر العباسي

قال علي بن الجهم :

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
سلوت ولكن زدن جمرأ على جمر
تشك بأطراف المثقفة السمر
تضيء لمن يسري بليل ولا تقري
ولا وصل إلا بالخيال الذي يسري
وألهين ما بين الجوانح والصدر
روى نفسه عن شرهها خيفة السكر

عيون المها بين الرصافة والجسر
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
سلمن وأسلمن القلوب كأنما
وقلن لنا نحن الأهله إنما
فلا بذل إلا ما تزود ناظر
أحين أزحن القلب عن مستقره
صددن صددود الشارب الخمر عندما

وقال أبو الطيب المتنبي مادحاً سيف الدولة :

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
إذا استوت عنده الأنوار والظلم
بأنني خير من تسعى به قدم
وأسمعت كلماتي من به صمم
ويسهر الخلق جراها ويختصم

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
أعيدها نظرات منك صادقة
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
أنا الذي نظر الأعشى إلى أدبي
أنام ملء جفوني عن شواردها

وقال أبو فراس الحمداني :

أيا جارتا لو تشعرين بحالي
ولا خطرت منك الهموم ببال
تعالى أقاسمك الهموم تعالي
على غصن نائي المسافة عالي
ويسكت محزون ويندب سالي
ولكن دمعي في الحوادث غالي

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
أيحمل محزون الفؤاد قوادم
أيضحك مأسور وتبكي طليقة
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة

وقال بهاء الدين زهير :

وأما غرامي فهو ما تريان
فماذا الذي بالدمع تنتظران ؟
قفا ودعاني ساعة ودعاني
فمالي أراه في السلو عصاني ؟
رفيقك قيسي وأنت يمانى

خليليّ أما هذه فديارهم
خليليّ هذا موقفٌ يبعث البكا
فإن كنتما لا تسعداني على الأسى
فيا ويح قلبي بالغرام أطعته !
وإني وإياه كما قال قائل :

آداب العصر العثماني

تضعض أمر الخلافة العباسية ، فاعتزتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء ، وعاث التتار ببخارى وبغداد ، والصليبيون بالشام ، والفرنج بالأندلس . ففجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب ، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد وقتل العلماء .

وكاد الزمان يمحي اللغة العربية ويلحقها بأخواتها السامية لولا الذكر الحكيم ، والأزهر الشريف ، وسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك ، فكانوا لها رداءً ، ولأبنائها حرزاً ، ولعلمائها وزراً ، من غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق ، فالأيوبيين وإن كانوا أكراداً فهم تكلموا العربية وتأدبوا بآدابها ، ونبغ منهم العالم والشاعر والمؤرخ^١ ، وشدوا أزر العلماء والأدباء حتى نبغ في ظلهم بعض الأعلام كابن خلدون منشئ المقدمة ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، ومن الشعراء صفى الدين الحلي ، والشاب الظريف ، وابن الوردي ، لكن هؤلاء الأفراد تقسمتهم الأعصر فما استطاعوا إنهاض اللغة الثكلى بعد ما أمحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس ، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض الموشك .

ولما تمكن العثمانيون وصارت الخلافة إليهم ، أصبحت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة ، واللغة الرسمية التركية لا العربية ، ففسا في اللغة الدخيل ، وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين ، وتمكن النذل من النفوس فخدمت القرائح ، ونضب معين العلم ، واطمأنت الكتب في الخزائن فلم يزعجها إلا اشتعال الأرضة في صفحاتها ف ضرب الجهل عليهم وطال عليهم الأمد فنامو ، ولم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة !

بعض من برز في تلك الفترة :

ذكرنا أن سماء الأدب العربي أغطشت في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح إلا من شارق في سماء مصر ، أو بارق في جو الشام . وهذان البلدان هما اللذان حفظا للغة وجودها ، ورفعا سقوط الأدب وجمعا شمل العلم ، ولولاهما لانقطع بين الأدبيين : القديم والحديث . ومن بعض النابغين في الشعر والأدب الشاب الظريف ، ولد بمصر وتوفي بها غص الإهاب عام ٦٨٨ هـ ، واسمه شمس الدين محمد التلمساني لقب الشاب الظريف لرقته وطرافة شعره . والبوصيري صاحب البردة في مدح الرسول ، ولد وتوفي بمصر ٦٩٥ هـ ، واشتهر بشعره في المدائح النبوية ، وظلت قصيدته " البردة " مصدر إلهام للشعراء حتى عارضها أحمد شوقي في قصيدته المشهورة نهج البردة . وصفى الدين الجلي زعيم الشعراء في عصره ولد بالعراق وتوفي بها عام ٧٥٠ هـ ، وارتحل لمصر ومدح الملك الناصر فأجزل له العطاء ، وكان أول من صنف كتاباً مختصاً بالشعر العربي العامي سماه بالعاطل الحالي وأورد فيه نماذج من شعر زمانه . وابن حجة الحموي زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزنة الأدب وتوفي ٨٢٧ هـ ، وكان يظهر سرقات الشعراء في عصره فتعصب عليه شعراء من مصر وصاروا يهجونه . والسيدة عائشة الباعونية المتوفية عام ٩٢٢ هـ ، وهي امرأة ناسكة صالحة ، ونشأت في عائلة من العلماء فهلت من حياضهم وسلكت مسلكهم ، ونظمت القصائد في المدائح النبوية واقتصرت عليها .

^١ كالملك الأفضل علي بن صلاح الدين المتوفى ٦٠١ هـ ، و بهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى ٦٢٨ هـ ، والملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء المتوفى ٧٢٢ هـ

مختارات من أدب العصر العثماني

قال الشاب الظريف :

واشرح هواك فكلنا عشاق
جاري ولولا قلبك الخفاق
في حمله فالعاشقون رفاق
فتكت به الوجنات والأحداق
عاد الوصال وللهوى أخلاق

لا تخف ما صنعت بك الأشواق
قد كان يخفى الحب لولا دمعك الـ
فعسى يعينك من شكوت له الهوى
لا تجزعن فلست أول مغرم
واصبر على هجر الحبيب فربما

وقال صفي الدين الحلي في الحماسة :

وسائل البيض هل خاب الرجا فينا ؟
في أرض قبر عبيد الله أيدينا
عما نروم ولا خابت مساعينا
دنا الأعادي كما كانوا يدينونا
إلا لنغزو بها من بات يغزونا
لقولنا أو دعوناهم أجاونا
يوماً وإن حكموا كانوا موازينا
نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
وإن دعوا قالت الأيام آمينا
أن نبتدئ بالأذى من ليس يؤذينا
خضر مرابعنا ، حمر مواضينا
ولو رأينا المنايا في أمانينا

سل الرماح العوالي عن معالينا
وسائل العُرب والأتراك ما فعلت
لما سعيننا فما رقت عزائمنا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد
بضمّر ما ربطناها مسومة
وفتية إن نقل أصغوا مسامعهم
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرقاً
بيض صنائعنا ، سودّ وقائعنا ،
لا يظهر العجز منا دون نيل منى

وقال البوصيري في بردته :

مذ بان أهل الحمى والبان والعلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
وأومض البرق في الظلماء من إضم
وما لقلبك إن قلت استفق بهم
ما بين منسجم منه ومضطرم
ولا أرقّت لذكر البان والعلم

ما بال قلبك لا ينفك ذا ألم
أمن تذكر جيران بذي سلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
فما لعينيك إن قلت اكفها همما
أيحسب الصب أن الحب منكتّم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل

آداب العصر الحديث

ظلت أنفاس اللغة العربية تتردد في وناء وضعف ، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل ، فانفض عنها الوهن وسرت فيها الحياة ، ففي مصر كان ملاذها وغياثها ، وفي مصر كان بقاؤها وانبعاثها !

وكان حال مصر مبكياً، فهي في ذلك الوقت تحت العثمانيين حكماً، وتحت سيطرة المماليك فعلاً، وكانت الأهواء المختلفة والقوى المتضاربة تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة ، يستغلهم الظلم ويستعبدتهم الحكام حتى غزاهم على هذه الحال الأليمة نابليون سنة ١٧٩٨ م ، وليس لنا أن نتعرض لهذا الغزو إلا من جهته الأدبية ، فقد رافق نابليون جماعة علمية غرست بذور الحضارة في مصر ، فأنشأوا في مصر مدرستين وجريدتين ومسرحاً للتمثيل ، ومجمعاً علمياً ومكتبة ومطبعة ومرصد فلكية ، وسهلوا للناس الوصول إليها والوقوف عليها ، فكان هذا الضياء الذي أزال ما احلوك من ظلمات الجهل ، ونظر الناس حولهم فإذا هم على أبواب القرن التاسع عشر وأن الغرب واقف منهم وقفة الإنسان العاقل للحيوان الأعجم ! فهتوا واندھشوا .

أما محمد علي - وكان للتو قد تولى حكم مصر حينذاك - لم يدهش ، بل علم أن العلم أساس ما كان الغرب فيه من حضارة وعمارة ، فأخذ في تعليم المصريين واستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف ، وبعث بالنجباء من الطلبة المصريين لفرنسا ليستزيدوا ، وفتحت المدارس ودور الترجمة والمطابع ، وأصدرت المجلات والصحف ، وحذى الأمير بشير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر ، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم ، حتى أخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويداً رويداً وتعم أنحاء الوطن العربي .

تطور النثر :

بدأ الأسلوب اللغوي يتعافى شيئاً فشيئاً ، فتخلى الناس عن مظاهر التكلف والتصعب ، وتركوا الدخيل والعجمة والركاكة ، و أنجبوا أسلوباً يليق بالعصر و اللغة العربية ، فتميز النثر بالرقة والدقة ، والسلامة والرصانة والقصـد . ونبغت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد فبلغوا بالنثر منزلة لم يبلغها في عصر من عصوره . كالمنفلوطي والبشري والرافعي والمازني ، والعقاد وطه حسين . وتعددت الأساليب بحسب أغراضها ، فاختلفت كتابات الأدباء عن الفقهاء وكتابات المحامين عن الصحفيين ، لكنها ظلت في مجملها ملتزمة بما ذكرنا من سمات .

الفن القصصي والروائي :

شاعت القصص في العرب قديماً ، إلا أن الفن الروائي والمسرحي ظل غريباً عن الأدب العربي لا يألفه ولا يعرفه ، حتى تعلمه من الأدب الغربي من خلال القراءة والترجمة .

الكتاب :

وقد ظهرت طائفة من نابغي الكتابة في ذلك الوقت ، حملوا على عاتقهم هموم الأمة فمضوا يحاربون بأقلامهم ، ومنهم جمال الدين الأفغاني ، فدعا للوحدة الإسلامية لردع المستعمر ، ودعا للحكومة الدستورية لقمع المستبد .

ومنهم الأستاذ الإمام محمد عبده ، الذي بدد غيوم البدع والباطل ، و جدد حبل الدين وشاد أركان العلم ودفع عن الأرض الفساد . ومنهم السياسي النابه الشيخ علي يوسف ، وكان له أثر لا ينسى في إنشاء الجمعيات الخيرية ، و تحويل التعليم في المدارس إلى اللغة العربية . وملك ناصف بنت الشاعر الكاتب حفي بك ناصف ، وهي المشهورة بباحثة البادية ، وعنيت بالمرأة المصرية ونهضتها وتعليمها . وأحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة .

الأدباء :

وممن لمع نجمه من أرباب القصص والروايات والمسرح ا مصطفى المنفلوطي ، وكان أسلوبه بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال ، ترجم الروايات والقصص وكتبها فجاءت في صياغة بليغة رصينة فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة وقوة . ويوسف السباعي الذي تولى وزارة الثقافة المصرية . ونجيب محفوظ الذي صور العيش المصري البسيط في رواياته حتى نال عليها جائزة نوبل .

الشعر :

ظل الشعر يتطور ويتطور ، فكلما جاء جيل مال أكثر إلى بساطة اللغة دون إخلال والذي سيمهد في مرحلة لاحقة للشعر الحر . ومن الشعراء الملمهين أحمد شوقي ، الذي يكاد يجمع النقاد ، على أنه كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت لم يظهر فيها شاعر موهوب بعد المتنبي . ومنهم محمد حافظ إبراهيم الذي خلص للشعب ، يعبر عن روحهم وينظم أمانهم . ومنهم إبراهيم ناجي الشاعر الصادق ، والذي نحى بأسلوبه نحو البساطة والتجديد ، وكان من أبرز رواد مدرسة أبولو الشعرية^١ . وأبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي أظهر عبقرية في الشعر وهو دون العشرين .

الشعر الحر :

وكان هذا الميل نحو التجديد في اللفظ والقافية أكبر م مهد – كما ذكرنا - لظهور الشعر الحر ، وهو شعر متحرر جزئياً من قيود القافية والبحور . وظهرت تمهيداته على يد عدد كبير من الشعراء ، أبرزهم شعراء مدرسة أبولو ، ثم جاءت نازك الملائكة فكتبت أول قصيدة حملت الميلاد الحقيقي للشعر الحر ، وأقبل معها مجموعة من الشعراء يشاركون في هذه الثورة الشعرية . منهم بدر شاكر السياب ، وأمل دنقل ، و عبد الوهاب البياتي . والنقلة الحقيقية للشعر الحر هي اصطناعه أساليب جديدة في الشعر ، كالترميز وإدخال مفردات أجنبية وأساطير ومصطلحات والاعتماد على وحدة الإيقاع دون القافية ، مما أنشأ لجيل شعري جديد أبناؤه نزار قباني ، محمود درويش ، سميح القاسم ، فاروق جويده وغيرهم .

^١ جماعة أبولو هي إحدى المدارس الأدبية الهامة في الأدب العربي الحديث ، مالت إلى التجديد في اللفظ والبحر والقافية وضمت كثيراً من الشعراء المبدعين المجددين .

مختارات من آداب العصر الحديث

كتب العقاد يقول :

لقد علمتني تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التي ننفرد بها ، ولا تغيظهم النقائص التي تعيبنا ، وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لا ما يصغرك ، وقد يرضيهم النقص الذي فيك ؛ لأنه يكبرهم في رأي أنفسهم ، ولكنهم يسخطون على مزاياك ؛ لأنها تصغرهم أو تغطي على مزاياهم .. فبعض الذم على هذا خير من بعض الثناء ، لا بل الذم من هذا القبيل أخلص من كل ثناء ؛ لأن الثناء قد يخالطه الرياء . أما هذا الذم فهو يقتحم الرياء .

قال أحمد شوقي واصفاً غربته في منفاه^١ :

اذكرا لي الصبا وأيام أنسي	اختلاف النهار والليل ينسي
صورت من تصورات ومس	وصفا لي ملاوة من شباب
سنة حلوة ولذة خلس	عصفت كالصبا للعبوب ومرت
أو أسا جرحه الزمان المؤسي ؟	وسلا مصر : هل سلا القلب عنها
رق والعهد في الليالي تقسي	كلما مرت الليالي عليه
ماله مولع بمنع وحبس ؟	يا ابنة اليم ما أبوك بخيل
..ح حلال للطير من كل جنس ؟	أحرام على بلابلة الدو..

وقال محمود درويش :

على هذه الأرض ما يستحق الحياة : تردد إبريل ، رائحة الخبز في الفجر ، آراء امرأة في الرجال ، كتابات أسخيليوس ، أول الحب ، عشب على حجر ، أمهات تقفن على خيط ناي ، وخوف الغزاة من الذكريات .

على هذه الأرض ما يستحق الحياة : نهاية أيلول ، سيدة تترك الأربعين بكامل مشمشها ، ساعة الشمس في السجن ، غيمٌ يقلد سرياً من الكائنات ، هتافاتُ شعب لمن يصعدون إلى حتفهم باسمين ، وخوف الطغاة من الأغنيات .

على هذه الأرض ما يستحق الحياة : على هذه الأرض سيدة الأرض ، أم البدايات أم النهايات . كانت تسمى فلسطين ، صارت تسمى فلسطين . سيدتي : أستحق ، لأنك سيدتي ، أستحق الحياة !

^١ وهي قصيدة ساقها على غرار قصيدة للبحثري مطلعها : صنت نفسي عما يندس نفسي * وترفعت عن أذى كل جيس .

خاتمة :

نحمد الله ختاماً كما حمدناه ابتداءً ، ونشكره على أن وفقنا لما أخرجناه .

وليس لنا أن نزعم بعد أن في هذه الوريقات ما يسد حاجة المطالع عن تاريخ الأدب العربي وفنونه ، فبرغم ما بذلناه من جهد لنبسّط عصور أدبنا العربي ونشرح سمات كل عصر ، إلا أن الأدب العربي يبقى أثري وأغنى من أن تسعه وريقاتنا ، كيف لا ولغته قد امتدت لما يفوق ١٥٠٠ عام .

لذلك نرجو أن يكون فيه ما يجذب إلى التزود من آداب اللغة ، و الاطلاع على تاريخها ، فنتعلم كيف نبني ثقافةً أدبيةً متينة ، نجدد فيها العصور الماضية ونضيف إلى أدبنا نفائس خالدات منثورة و منظومة .

هذا وإن كان ما خطته أقلامنا صواباً فمن الله وحده ، وإن كان غيره فمن أنفسنا والشيطان .

وصلّى الله وسلّم على نبينا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين

قائمة بالمراجع التي استند إليها هذا البحث :

القرآن الكريم

موقع أدب (www.adab.com)

أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، الطبعة الرابعة عشر ، ٢٠١١/١٤٣٢ ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان

الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ١٩٦٢ م ، دار المعارف ، القاهرة - مصر

بطرس البستاني ، أدب العرب في الأعصر العباسية ، طبعة منقحة ، دار الجيل ، بيروت - لبنان

جرجي زيدان ، اللغة العربية كائن حي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ ، دار الجيل ، بيروت - لبنان

عباس العقاد ، أنا ، ٢٠١١/١٤٣٢ ، المكتبة العصرية ، صيدا - لبنان

مصطفى الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ٢٠١١/١٤٣٢ ، المكتبة العصرية ، صيدا- لبنان